

ان ايمانه العميق هو الذي يجعله يتعذب ويعاني خاصة عندما لا يجد الخلاص لانه يعتقد انه يقع اكثر فأكثر في الخطيئة . ويدرك انه يستحيل على الانسان ان يكون بلا خطية . فهو يصرخ صادقا(١٢):

الاحك ابدأ بدمائي ، / اكره بدون رتبة : / وماذا علي ان خرقت طلبتك / ولم تبق ما لم تخرقه في ؟

لا بد ان تكون قصيدته الطويلة « من الاعماق صرخت اليك يا موت » في « القصيدة ك » قد نظمت قبيل اعترافه لجبرا بنية الانتحار لديه . لم يكن فقدان فلسطين او فقدان امه وحيبيته « كاي » او السوء الذي لقيه وشعره في وسط المفكرين العرب او الجماهير العربية ، لم يكن ذلك مبعث رغبته في الموت كما لم يكن اعتقاده بأنه خاطيء او ان الانسان الحديث مصيره الهلاك ، انما مبعث تلك الرغبة هو نظرتة الى الحياة ، تلك النظرة المساوية هي التي تجعله يرى هذه الاشياء قاسية ومظلمة أكثر مما هي في نظر الاخرين . انه يرى نفسه :

تقدم ، ولا / اهل ولا / بيت حسدا ، / كسبح ولا مسبح(١٤).

ان الانسان الحديث في نظره محاصر بالشرور بأنواعها ، تحطمه وتفقدته انسانيته . ومع ذلك لا يرى توفيق المسيح فاعلا في هذا العالم . انه يؤمن ان انتصار الشر على الانسان هو هزيمة لا للانسان وحده بل وللمسيح ايضا . لذلك يقول في نهاية معلقته :

لا تتركني اجف أنتهي / انساق للفتنة ملوثا بعيدا عنك . / لا تدع الملك الكالح / يعرى يفتصمني / ويدمغني بدمغته / لا ليتهمني / بل (الهى الهى) ليتهرك .

وهكذا نفهم توسله لله : « أعني . أعني » .

أي حديث عن صغر توفيق لا يكون تاما دون ذكر الكركدن ، ذلك الحيوان الاسطوري الجميل المعروف في الثقافة الغربية منذ القرن الثاني عشر . يظهر الكركدن في ميثولوجيا القرون الوسطى على انه حيوان قوي شرس يشبه الحصان وله قرن واحد في جبهته . وهو لا يمكن اخضاعه اذ يفضل الموت على الخضوع . يشتهر الكركدن بعفته وسعيه المستمر للحصول على عذراء عفيفة . وما ان يجدها حتى ينبهر بحضورها ويلقي برأسه في حضنها . والعذراء هي الطعم الذي يلقي به الصيادون أمامه . وما ان يستقر في حضنها حتى يمسكوه ويقتلوه . وتذهب الاسطورة الى ان قرنه العاجي يزيد من قوة الرجل الجنسية ويخفف من آلام الولادة عند المرأة ويزيل عن السم ميزة القتل . ويشبه الكركدن بالمسيح الذي رفع قرن الخلاص من أجل البشرية وعاش في رحم مريم العذراء .

نشر توفيق في العام ١٩٦٣ قصيدة طويلة تزيد عن اربعمئة سطر من الشعر الحر تحت عنوان : « بضعة أسئلة لاطرحها على الكركدن »(١٥)، ثم أعاد نشرها في معلقته . وكانت تلك آخر قصيدة رئيسية له قبل ان ينشر قصائد حبه « ايضا وايضا » في العام ١٩٦٧ . وبعد ذلك لم يصدر عنه شيء حتى وفاته .

قد تكون هذه القصيدة أغرب قصيدة في الادب العربي . يقيم توفيق فيها أوجه شبه بين أسطورة القرون الوسطى عن الكركدن وبين حياة المسيح ، وهو شخصيا ينسب نفسه الى الكركدن . ويبدو انه وجد اخيرا لنفسه الصورة المناسبة التي تتناسب ونظرتة الى نفسه والى الحياة . فهو يسعى هنا وراء عذراء نادرة بتلف حب افلاطوني ليحدها مصيدة اقامها له الصيادون . هي ترغب في الحب الجنسي والامومة والحياة . وهو لا يستطيع ان يقدم لها ذلك لانه اذا مات غيموت لوحده . واذا لم يموت كذلك فسيسقط على يد الصيادين . انه محاصر من جميع الجهات ولكنه يفضل ان يبقى صادقا لطبيعته :